قصة قصيرة :

ويجيء الموج امتدادا ...

(الى المرأة التي تقاسمني آلام الزنزانة والمنفى والفرح و .. و .. و ..)

الزاوي محمد امين

ـ ١ ـ

كان جسدي حوارا .. وكان وطني القضية المرفوعة ..

آتيك من مفترق قوارب الصمت مدججا بالرفض ، بالسخط ، باللعنة ، بالحب البدوي ، بالطفل الذي ينمو كسنابل القمح ...

آتيك أحمل راية ، ملفعا في راية ، من لونها يأخذ القمر حمرة عيونه .

يخرج كل لحظة من أكوام التبن ، وفيض البيادر وظل أغاني الحواتين ، فارسا يمتطي فرسا دهماء .. يقرأ لاطفال العالم الثالث كف الجوع والثورة .. الحرب .. الموت .. الرحلة .. المطر .. المنفى .. العشق واشياء لا يبوح بها سوى للاطفال .

وأنا آتيك ، أوقفني هذا الصباح رجل غريب عن المدينة ، كان يشبه الى حد ما (موسى) كما تحكي عنه خرافات جدتي ، التي ماتت ذات شتاء ، ولم تنه لي قصة (عيشة بنت الحطاب) .

سألني عن أقرب فندق يمكن له أن يقضي فيه الليلة ، لم التفت بادىء الامر ، لكني أيقنت ان كل فنادق مدينتنا محجوزة ...

لم أجبه .. ولم أتجاهله .. حتى اني كنت أتمنى ان لا ينام في هذه الظروف التي لا يجد فيها أين ينام .

ـ ٢ ـ

كان الاطفال ـ قال الراوي ـ يلعبون في الساحة العمومية ، أسرعوا فجأة جهة الزقاق الذي ينزل في اتجاه سوق الاغنام والابقار ، وقفوا عند (الحلقة) . كان الرجل الذي اجتمع حوله كل من في السوق من الاطفال ، ما فتىء يقرأ الاكف .

تقدم منه طفل من مخلفات الحرب الحريرية :

ـ اسمك ؟

ـ لا اسم لي ..

صاح الاطفال من خلفه :

ـ بوشواطة ..

في رأس الطفل أشياء كثيرة تمارس عملية الحفر بقوة ، على عينيه يتمطى التعب وشبح الاكياس التي يحملها للشحن أو التفريغ .. من احدى الشاحنات العملاقة .. تقوس ظهره ، في أذنه صوت المحرك والزجر والامر والنهي ... والتاريخ .

نظر فيه العراف ثم قال :

ـ المدن التي ركبتها ـ يا بني ـ علمتك كيف تغتال الحزن ، في زمن يأتي لا ريب فيه ، سوف يبعدونك عن هذا الوطن ، وسوف يحاولون أن يغرسوا في غابات الحب الموحشة التي تملكها صحارى الكآبة . سيعلمونك في الاقبية الظلماء التي يدخلونك اليها أغاني الرثاء ، وأنت لا تحسن غناء هذه القصائد .. وعندما لا تبكي ولا تغني ، سيحاولون أن يعلموك الرقص ، وحين ترقص لهم كالعصفور رقصك المفضل ... سيصمتون .

الطفل كان مشدودا الى كلام الشيخ :

ـ من أنت حتى تقرأ أسرار هذا القلب ، الذي لا يملك أما ولا أبا ؟

ـ غريب أنا عن مدينتكم يا بني ، لكني كنت أسمع دائما الحانكم تأتيني من خلف هذا الجبل العظيم .

وأشار باصبعه اليسرى الى الشاحنة الضخمة الرابضة تنتظر تفريغها .

ـ في زمن يأتي ـ أيها الشيخ ـ هل سأدخل

المدرسة وأتعلم كتـــابة الرسائل التي تحمل الســلام والتحيات الى الناس في كل مكان ؟ هل سأتعـــلم كتابة اسمي واسم ابي ، وكل الذين لم تسجل الحالات المدنية في المدينة ؟

ـ ... وسياتي ذات صباح أبرد بقليل من هـذا الصباح .. وستسمع فوق زنزانتك التي كتبت عـــلى جدرانها بعض حبك وبعض كفرك وبعض أشعارك وأسماء رفاقك الذين ألقي القبض عليهم معك في تلك الليلة التي مارستم فيها الحلم بقوة .. حيث تتـــذكر كتبك التي حجزوها ، وبعض الوجـــوه التي تعفرت بالدم وهي تبتسم ، وكثيرا من الجـــروح التي لا تزال تسجل كل ذلك على ظهرك .. اذن فالامر بسيط .. ستسمع أغنية فيها بحة العمال والفلاحين وفيها بريق المناجل ورائحـة النساء العائدات عند القيلولة مـن الحصاد .. ستأتيك اللذة ، وتتذكر فتاة الحي ولاول مرة ستبكي ، ثم تكتب على الجدار كاذبا انك لم تبك ، ثم تسمع خطوات السجان تسرع الى الخارج . فيشدك وقـــع خطواته السريعـة وصليل المفاتيح يتبعه .. في هذا الصباح البارد مـــن زمن يأتي ستكون لك لحيـــــة طويلة .. تدخل فيهـا اصابعك ، ثم تاخذ برسم وجه حبيبتك التي منعوك منها لانك لم تكرهها ولانك قلت فيها شعرا دون رخصة موقعة من رجال البوليس والشرطـة والجمارك الواقفين كـل لحظة في خطوط الحدود ، ورجال المخابرات ، والفقهاء والمشرعين وأهل القانون والمقدمين وكبار الجماعة والائمة وأصحاب الامر والنهي عن المنكر وكل أعـوان المدينة . ستحب هذه الزنزانة في هذه اللحظات كثيرا لانك تحمل على صدرها جزءا منك . وتحمل أشياء كثيرة .. تذكرك.

في تلك اللحظة كان الطفل يفرغ نظراتـه المحمومة في هذا الرجل . قال له :

ـ انت تقرأ قلبي ...

تلفت (المهرج) في الجمع ، كانوا شبه حيارى . مرر يده على وجهه المزروع ندبا ينتشر فيها الماضي اليما.

تقدم منه طفل آخر في تلك اللحظة . انتشر الرعب في عيني (الشيخ) . كان يغني .

ـ العلامة كبيرة ...

وغنى معه الاطفال ، بقوة ، الا ان الطفـــل الاول ظل صامتا .

وكان الحضور ...

وكان الغياب ...

ـ ٣ ـ

وكان المساء .. وكنت واقفا في الامام .. أعترف لاطفـــال مدرسة الحي الشعبي ، أسفل السوق ، ان الولادات في هذه الازمنة عسيرة ...

كان الدم الناري يعسكر في وجوه مقسمة الـى اثنيـن ..

الجهة الاولى مقابر .

والثانية سلاسل .

ـ ٤ ـ

توقفت عن فتل الكسكسي فجأة . قالت :

ـ متى تكبر وتقلع علينا الغبينة ؟

في ملامحها تمدد أخطبوط العرق وتشرعت مراكب الجوع واغتالتها الذكرى :

ـ بنت الميلود الرقيعي .. طفلة رقيقة ، سأزوجها لك ، انها تحسن حلب المعز والابقـــار وغناء أناشيـد الجنود والشوالة ...

في ذات انـــوقت دخل (الدراري) يحمـــلون (شواطات) السنابل التي التقطوها منـذ الصباح من خلف حصادة (المعلم) أحمد . كان البعض يقول :

ـ سأبيع (قردية) وأشتري بها نعالة عمر واحد ما لبسها في الدشرة .

قال الذري الذي لم يجمع سوى شواطة صغيـرة شاحبة السنابل :

ـ والله ملتو لو كان خلاني نزيـــد نجمع ، حتى انجيب خير منكم .

ـ باينا عليك ... البارح شحال جمعت ؟

ـ قفة ... معمرة .. السبولة المخيرة لاختها .. لكن ربو أخذاها مني لدوابه للعلف ..

كان الكبار يتحدثون عـن ابنة (المعلم) ، يقولون انها تقرأ كثيرا وتحسن التحدث باللغة الفرنسية ، وهي جميلة تتكلم مع الرجال وتسير في الشوارع ...

ـ ٥ ـ

توقفت سيارة الشرطة مزمرة برعب عند الباب . قفز منها اثنـــان مسلحان مسكونان بالـــدم والرعب والاندفاع .. وأشياء أخرى :

ـ انت معزوز المدعو (بوشواطة) ؟

ـ نعم ..

ـ اطلع ..

عندما كان السجان يحلّ له ربطـة عنقه الرقيقة الوسخة وخيط حذائه وحزام خصره ، تفحص وجـــه أمه من خلال المحققين الذين أحاطوا به ، الا انه كان يبدو هادئا .. ولاول مرة كانت رائحة الحقول تشعره بوجوده الحقيقي . وكانت الطفلة التي يجوع اليها في كل لحظة تسير في دمه نارا محرقة ، شعلة من لهب .. تحاصره من كل جهة .. كان مصروعا تغتاله قوافل الذكريات ..

في الزنزانة التي قيد اليها .. يتبعه لحن رخيم .. كان عرف الصوت من اوله ...

المهرج التسيح .. كان .

— ٦ —

انظلام .. ليس غير الظلام . ولم يتبين أول الامر أي شيء . يشم رائحة البول والغائط والعرق . انتابه القلق . البطانيه الملقاة وسط الحجرة المنداة تبعث فيه القرف . نظر الى الجدار . مملوءا بالتواريخ محفورة بفصه هذا الزمن . قوائم اسماء بالفرنسية والعربية لرجال تعاقبوا على هذه الزنزانة في ازمنة متفاوتة البعد . تساءل :

— ذاك المهرج كان يقرأ كل ما في صدري ..

واسم التسيح كان بين قائمة الجدار ، ولم يدهش لذلك ...

وسقط كثير من الاسئلة التي كانت تلاحقه .

لم يكن يتسلى بقراءة الجدران . كان يقف طويلا امام كل حرف ، وعرف بعض الخطوط .

في اللحظة يأتيه الوطن عبر خيط ضوء يتيم ينزل بالم من ثقب في سقف الزنزانة .. ممتطيا صهوة المحنة . يقف الوطن أمامه خجولا صامتا ، يسأله :

— هل كنت تتعشى في خمارات البلد.. يصافحك الاقطاعيون ؟

لا يجيب الوطن .. ثم يضيف :

— هل تفهم كيف يموت العمال في ترعات المناجم.. وفي أقبية ....

لا يجيب الوطن ويظل مطأطىء الراس.. ثم يضيف:

— هل قضيت ليلة دون عشاء .. انت أو صغارك ؟

يسكت الوطن ثم يركب الريح ..

وأبكي .. وأكتب ثانية على الجدار كاذبا انني لم ابك طول حياتي ..

ويأتيه الوطن ثانية في المساء .. يحكي له شيئا فقط حتى يزاح الصمت الثقيل :

— وأدخل نقابات لا أعرفها ، وأعرفها .. مقطعا مفزوعا تطاردني رائحة (الاقطاع) في ملاك الاجساد الطرية التي تقدم في الاماسي الجميلة .. أرمي عني الموت وأصير الموقف في أول طابور للطلاب ..

عندما جاءه الوطن هذه المرة لم يتألم ، الا ان صورة الحبيبة التي حاصروها من كل جانب كانت تطعنه ..

تذكر انه عندما قيد الى الزنزانة قال لها في ذلك المساء :

— سنتزوج مع نزوح الربيع الى قرانا.. وسنحمل الى قلوب الاطفال عناقيد الشمس ؛ وستبقى ذاكرتنا بجروحها تعطينا بعدا وقوة جديدة .

اجابتني وفي كلماتها تصهل افرسة الحب الوحشية . وتفرخ صحراء الشعر ألحان المنفى والغربة :

— انظر . هذه الفيوم تحمل على أعناقها ، أشياء .. هذه فرس حمراء يركبها رجل ينزل بمدينتنا ذات مساء وسيسالك عن المبيت ولن تتجاهله .. وسيقرأ لك الكف في السوق الشعبية . يعلن لك عن أشياء مخيفة..

وحدثتني ليلة التي سبقت مساء القبض على طفلنا الذي يغرد في حلمها ...

— ٧ —

عندما نزلت الادراج التي تؤدي الى الميناء .. كان الصباح رطبا تصحبني ذكرياتي وأحلامي وأشعار زوجتي التي لا تعرف الوزن. والتي سجلتها على الجدران وحفظتها .. كان طفل يشبه المحنة يحمل صندوق (كرتون) عليه علب الكبريت و (الافراز) وانواع السجائر الرخيصة يبيعها لعمال الميناء ، يبتسم لي . وجدت فيه لحن بيت من الاشعار التي حفظتها في الزنزانة . قدم لي علبة وقال :

— افراز .. افراز .. يا بو لحية ..

وعندما سمحوا لي أن أتحدث معه ، لان اقلاع الباخرة لم يحن بعد . رغم ان بعض المسافرين كانوا يتجمعون عند أحد المداخل ، قلت له :

— كم عمرك ؟

— ولدت بعد ... افراز افراز .

— منذ كم بالتقريب ؟

— أتشتري السجائر ؟.. ما عندكش حتى باش تحسن لحيتك ؟..

تركني مسرعا يعترض الذين ينزلون الادراج .. عندما غاب وسط الزحام ميزت صوته يقول :

— المهرج .. المهرج ..

البحر كان يتقيأ عبارات حزني ويحتضن أسراري.. بعض طيور الماء كانت تغني للقادمين والراحلين ، وكانت المدينة لأول مرة تبدو لي ملبدة بغيوم تشبه عيني الطفل بائع الافراز .

شاهدت (المهرج) خلفي يقتادونه هو الآخر في اتجاه مصعد خاص في الباخرة .. رايت كفه وعروق المعصم بادية .. قالت لي الزنزانة :

— لو تعلم كيف يترك الرجال الفقراء هذا الوطن لبكيت ...

وعندما كنت أعلم ... وبكيت ، كتبت كاذبا انني لم أبك ..

في الطريق عندما بدا لي ذات يوم أن أحبك .. ضحكنا كثيرا لهذه الفكرة ..

قالت لي :

ـ أن تحب في هذا الزمن فأنت مستعد للموت...

وكانت موغلة في لهب الاحزان التي تستطيل وتستدير في أهرام الأمساء بوطني ..

كنت واقفا بين مد الرحلة واسترجاع اللحن الذي يأكل السواعد .. وكنت تبتعدين . تبتعدين .. ولم يبق لنا وقت للتأسي .. فقط سمعت قوافل الاناشيد ترحل جهة البحر المشوش .. كنت ابحث فيها عن طريق أدحرج منه شراع الحزن ..

انتشلني صراخ طفل عربي .. عرفته بسمرته وأوساخه وأحلامه الى الخبز ، فتساءلت عن مصاعد المحنة في أهداب أمه . أدركت الساعة ان طريق البحر مسكون مشحون بعواصف اللعنة ..

تفيات كفري .. أغرقني عشق الزنزانه فيالحظة . كنت أمارس طقوس الحب مصلوبا على الخشبة .

عندما عدت اليك من أدغال المنفى منعوني أن أكون صابونا أو خبزا أو رغوة ولكنهم لم يمنعوني أن أكون حلما .. وكنت الصحراء والشعر وعنترة ..

كانت تتراءى لي نوافذ مفتوحة يتسلقها نور في عين عصر المنفى ... كنت أصرخ في الاحياء الشعبية المنسية وأدعو أصقاع اللذة .

ـ ٨ ـ

في نوع من الاستشراق والتبصر كان المهرج يجمع لوازمه ، ثم يغادر (رحبة) السوق .

يتسابق الصغار في الطريق الضيق الذي ينزل الى الحي . لكن الطفل الذي قرا له الكف كان يسير ببطء الخطو حزينا .

سأله أحد الذراري ضاحكا :

ـ نخاف ـ كما قال المهرج ـ أن يأتي اليوم الذي لا ريب فيه فيبعدوك عن الوطن .. عن الحارة .. عنا.. عنها .. وتنتهي كل العابنا .

لم يجبه لكنه كان يبدو صامتا أكثر من اللازم .

سعيدة

حمري بحري

ـ ١ ـ

الوردة تشرب من دمها
وتقاوم قحطا يأتيها
وقميص الحلم على شفتيها :
توت عند ينابيع الفجر ،
المسكون بصيحات الثوار .

ـ ٢ ـ

فتقبل غصنا ...
ثم تموت ...

ـ ٣ ـ

بين القضبان
كانت سكينا ،
في حلق السلطان
كانت نهرا ...
كانت وترا ...
والعازف ـ بركة ـ في دمها
وضحايا الطغيان .

ـ ٤ ـ

الشاعر عصفور
يشكو من جرح القلب
عذابات الانسان .
ويطير بعيدا
في غبش الفجر
المسكون بصيحات العمال :
« نحن نتعب
وانتم تتعبون
وهم ... يجنون ثمار التعب » .

ـ ٥ ـ

وطني غصن
ينمو في القلب ...

الجزائر ـ ١٩٧٨